

من أفاضل الحب في عصر الرشيد

بَهِيَّة

بمقام الأستاذ أحمد حسن الزيات

بهبجتها وزينتها وفتنتها
وثروتها ، فهي أشعة من
الجمال والسحر ، وظلال
من الرخاء والبشر ،
ونسبات من الروح
والعطر ، وأخيلة من
الحب والشعر ، ومُتَمِّع
من نعيم التمدن الإسلامي

القائم على لذة الروح والجسم ، وسعادة الدين والدنيا ،
وراحة النفس والناس

أتجه الرجلان وتأبَّسُهما الصامت نحو الصوت
فجرها إلى بستان مشرف على النهر قد جلست على
عريش من عرائشه الكاسية بأشجار الرياحين
والزهر جارية في وفرة الجمال وزهرة العمر ترسل
هذا اللحن الغزلي الشجي الضارع كأنما تهديد
به حباً لا يهجع ، وتناجي به حبياً لا يسمع !
فدار بين أعظم الرجلين وبينها هذا الحوار
الرقيق :

— لملك تودين أن يكون لهذا الغناء الساحر

سامع !

— لو كنت أوده لما عز علي أن أجده

— وهل خلق الله مثل هذا الصوت ليتبدد

في الهواء وبضيع في هذه الخلوة ؟

— سل البلبل حين يبعث الشدو هل يبعثه

إلى أذنك . وسل الشمس حين ترسل الضوء هل

ترسله إلى عينك . وسل الزهرة حين تبث العطر

هل تبثه لأنفك ؟

— تبارك الله ! براعة في الغناء وبراعة في

— ١ —

— ما أجل هذا الصوت ! من أين مصدره ؟

— من صوب النهر يا مولاي

— إن حلاوته وإيقاعه لينبئان عن ظرف

بارع وصيباً نضر

— لعلها قينة في زورق من زوارق الخنثين (١)

ترف على لهوهم الماجن بالغناء والحسن كالعادة

— مل بنا إلى الشاطئ فلعلنا نرى مصداق ما نسمع

وكان الرجل الذي سأل وأمر طويلاً بدين

الجسم أشقر اللحية على وجهه جلالة السلطان

وعزة الملك ؛ أما رفيقه الذي أجاب وأطاع فكان

مساوياً له في العمر ، ولكنه كان ربعة القوام رقيق

البدن أزهر اللون ، تتوسم الظرف من ملامحه ،

وتبين الذكاء من وراء لفظه . وكانا يلبسان ملابس

التجار وعشيان مشية المستطلع بين القصور الناعمة

القائمة على دجلة من كرخ بغداد في أوائل يوم

من أيام أبريل . وعلى ثلاث خطوات منها كان يسير

رجل وثيق التركيب عظيم البسطة بالخط الحظايات الصقر

ويرعاها بعين النمر . وكانت دار السلام يومئذ في أيام

العروس (٢) من عهد الرشيد ، قد تجمعت فيها الدنيا

(١) كان يطلق هذا الاسم في بغداد على أهل الترف

واللهو والفتوة (٢) كان الناس يسمون عهد الرشيد

لرخائه وجماله أيام العروس

الدكاء وبراعة في الحسن ! ماذا تسمين ؟

— بهيرة

— ولبن تكونين ؟

— لسيدي علي بن وهب

قالت ذلك بهيرة ثم حيت الرجل وصاحبيه وانطلقت بين أشجار البستان كأنها عروس من عرائس الراج ازدهاها الربيع فطفرت من المرح راكضة راقصة

— لقد وقمت بقلبي هذه الجارية يا جعفر

— إذا شاء أمير المؤمنين كانت في ملكه من الغد

— ٢ —

وفي غد ذلك اليوم انتقلت بهيرة بالشراء إلى قصر الرشيد بالرصافة ، وكان بموج بالخور والولدان موحان الفردوس ، حتى بلغ ما فيه من السراى والقيان زهاء ألفى جارية من الروميات والكرجيات والجركسيات والعرييات والحبشيات ، يرقن في الأفواف الموشاة بالذهب ، والمصائب المرصمة بالدر ، والناطق المنسوجة من المسجد ، ويخطر بين دوائر الحرم موائس من الدلال ، نشاوى من الحسن ، ينفجن بالفتون والحب كما تنفج الزهور العاشقة بالطور المغرية في ميمة الربيع ...

أحلبها مسرور الخصى مقصورتها الأنيقة بين مقاصير سحر وضياء وخنث^(١) وأفاض عليها من الوشى والزينة والحلى ما جعلها قطعة من الفن الجمالى الخيالى لا تبلغها قريحة شاعر ولا عبقرية مصور . وانعمرت بهيرة في قبض الجمال والنور والترق

(١) هن الحظايا الثلاث اللاتي استأثرن بهوى الرشيد

حتى قال فيهن :

إن سحراً وضياء وخنث من سحر وضياء وخنث
أخذت سحر ولا ذنب لها ثلثي قلبي وترهاها الثلث

واللذة ! ولكن هذا القصر الذي لا ثنى له في دنيا الناس لم يستطع بما فيه من النعيم الدافق والسرور المتصل والهوى المختلف والأشجار المحمولة من كل أرض ، والأطيوار المجلوبة من كل سماء ، والأواوين المنجدة بالديباج والإبريسم ، والبرك المزدانة بالتمائيل والدثى ، والسلطان الذى خضع له الدنيا ، والجلال الذى اعتربه الدين ، لم يستطع بكل أولئك أن يمسح عن وجه بهيرة هذه الكتابة العاشية ولا هذا السهوم الملح ؛ فقد كانت أشبه بالوردة المقطوفة على المائدة النازقة في السرور الطاخة باللذة : تذوى وتموت وكل ما حوالها يزدهى وينتفش . فهل كان قصر الخليفة أضيق من قصر الناجر ؟ أم كانت سيادة ابن وهب أندى على قلب بهيرة من سيادة الرشيد ؟ واقع الأمر أن هذه الحال لم تطرأ على بهيرة في عيشها الجديد ، وإنما كانت تلازمها وهى في ملك ابن وهب ، وقد تذرع هذا بالطب والحيلة والهوى أن يرفه عن جاريته المحبوبة فما كانت ترداد على عنايته بها ورعايته لها إلا همها على هم ، حتى استراب في حبها إياه فحاول أن يصل إلى سرها ويعرف متجه هواها فما استطاع . فلما ساومه النحاس عليها بالثمن الربيع نزل عنها غير آسر ولا آسف

كانت بهيرة قبل عامين قد وهبت قلبها الخالى المنتظر لفتى من سرة بغداد الطرفاء فشغله كله . تغفل فيه تغفل السر ، وشاع به شيوع السرور . ثم تقلبت عليهما الأيام والاحداث وهما ثملان من رحيق الحب ، وادعان في ظل الأمان ، حتى نزل بالفتى ما ينزل بالترفين المتبطلين من كساد الحال وهجوم الفاقة . فباع كل ما يملك . ثم عاش على الأمان فترة

فكان يتسلل إليها في الظلام أو في الغفلة ، فيقضى معها ساعة من النهار أو هزباً من الليل ينضجان فيه غرامهما المسعور بالحديث المسول والقبّل الندية وفي ذات ليلة طنى عليهما الحب وعصفت برأسيهما الصباية فتولدت فيهما ناشئة من الأمل والعزم . قال سليمان وهو يثبت نظره المتوقد في نظر بهيرة الساجي :

— لقد أعددت عدة الخلاص ومهدت لك سبيل الهرب

— وماذا أعددت يا سليمان ؟

— أعددت لك هذا الثوب الغلامى فالبسبه واخرجى تحت الليل حين تخشع الأصوات وتهجع العميون ولا يدخل ولا يخرج إلا رسل الأسرار بين قصور السادة والقادة . وسأكون في انتظارك لدى مشرع القصب من دجلة

فقال بهيرة ودمعها الساجم يتقاطر على خديها تقاطر الطل :

— أنسيت يا سليمان أنى ملك الخليفة فلا أخرج منه إلا بالبيع أو بالعق ؟

— لم أنس يا بهيرة ، ولكن الخلاص بنير ذلك محال

— وكيف يصفو لنا العيش يا سليمان وهو شقاء متصل بمعصية الله وخيانة الخليفة ؟

— ربك يا بهيرة أخفتى هذا الصوت في نفسك ، وفكرى قليلاً في بؤسى وبؤسك . ليس

لى غيرك واپس لك غيرى ؛ أما الخليفة فله ألفا جارية ، وله أضعافهن إذا شاء . والله يا بهيرة يغفر الذنوب جميعاً

— ألا تظن يا سليمان أن العذاب فى الحب عذب ، والموت فى سبيله شهادة ، وأن هذه الساعة

من الدهر ؛ ورأى آخر الأمر أن من الاخلاص لحييته ألا يحملها وزر إسرائه وعواقب طيشه ، فباعها على الرغم من تشبها به وإيثارها إياه على ابن وهب

ودأب يزورها يوماً بعد يوم وهي فى قصر ابن وهب من وراء الحديقة ومن خلال السور وهي تنتظره فى المريش الذى رآها فيه الخليفة يوم تنكره ، فيتساقيان كثروس الهوى ، ويتناقلان حديث المنى ، ويتشاكيان حرقة الوجد ، وينظران نظرات الأسى المرير إلى دجلة والشباب الأحاب يشرقون على وجهه إشراق البسمة العذبة على ثغر السعيد ، فيذكران كيف كان هذا النهر الخالد مسرحاً لصباحها اللامى ، وشاهدأ على جهما الخالص ؛ وكيف نظر إليها الدهر الخثون فتقوض الربع الآهل ، وتفرق الشمل الجميع ، وآل الأمر بهما إلى أن يكون بين قلبيهما عاذل لا يُتفعل ، وبين جسميهما حاجز لا يُقتحم

كانت بهيرة وهي فى قصر ابن وهب تستطيع أن ترى سليمان وأن تتحدث إليه وأن تترك الأقدار الرحيمة إسماع حببها البائس بالثروة المرجوة فيستردها إلى ملكه ؛ ولكنها انتقلت الآن من عش الحمام إلى غيل الأسد ! فمن ذا الذى يستطيع الدنوم قصر الخلافة ؟ لقد ضرب الدهر بينها وبين حببها إلى الأبد ؛ فلا هو يستطيع إليها الدخول ولا هى تستطيع إليه الخروج ؛ فكأنه مات من دنياها ومات من دنياه . وبيت الخلافة لأمثالها قصر فى الأول وقبر فى الآخرة

— ٣ —

على أن الهوى كالسكر لا يعرف المحال ولا يحس الخوف ولا يبصر العاقبة . فقد احتال سليمان حتى ظفر بثياب خادم من خدام جعفر بن يحيى . فكان يدخل قصر الرشيد فى هذا الزى فلا يرئاب فيه الحراس ولا ينكره الخدم . وعرف مقصورة بهيرة

ضاق بها العفو وقصرت عنها الشفاعة ؛ ولكني أعلم كذلك أن حلمك لا يستخفه غضب وعفوك لا يتعاضمه ذنب. فهب لي دم سليمان فقد جنى عليه حبي، وسعى إلى عدمه وجودي. وهو يا مولاي يرى الساحة صادق النية سرى الخلق

: فقال لها الخليفة : إن هذه الجريمة تُنسى بوجهها الوقاح صورة الرحمة . فأسأليني ما شئت إلا العفو ، فإني لا أمنح إلا ما أملك .
فقلت بهيرة : إذن تعذني يا مولاي ألا يُقتل حتى أراه .

فقال لها الخليفة : لك هذا الوعد .

وأرسل وراء الجلال يأمره أن يرد عليه سليمان قبل أن يمضي قضاءه فيه .

فلما خرج الرسول أدارت بهيرة بصرها في السماء والقضاء والطبيعة ، ثم أرجعته وهو يفيض بالدمع والأسى ، ورددته في نواحي البستان ، وفي جوانب المكان ، وفي مرايا الجدران ، وفي حلتيها الذهبية ، وفي حلتيها اللاؤثة ، وفي وجه الخليفة ؛ ثم أدخلت إصبعيها في عجزها فاقلمت بهما عينها

فصاح بها الخليفة وقد أفرغه ما رأى :

— وبحك ماذا صنعت بنفسك ؟

— فديت بعيني حبيبي يا مولاي

— وكيف ذلك يا حمقاء ؟

— ألسنت وعدتني يا مولاي ألا يُقتل حتى

أراه ؟ فالآن لا أراه ولا يُقتل !

كان أثر هذا الحادث بالغاً في نفس الخليفة ، فبسط على الماشقين جناح رحمته ، ومهد لها الحياة السميدة في ظلال نعمته . وقنعت الغادية العمياء من دنياها بالعيش على نور الحب وفي كنف الحبيب !
الزيات

التي تلتقي فيها على غفلة من الرقيب بين الخوف والأمن ، وبين اليأس والرجاء ، أدنى إلى الحب الصحيح والسعادة الحق من العيش الفرير الناعم على مهاد الرذيلة ؟

— أطيب الهوى يا بهيرة واعصى العقل . فان المشاق لا يمشون بمقول الخليلين ولا يخضعون لقوانين المجتمع

وأسلس لسليمان الدمع والكلام فأوشك أن يحمل بهيرة على رأيه لولا أن قرع باب القصورة قارع عنيف ، فاستطير قلب الماشقين من الرعب ، وأيقنا بالهلاك المحتم

وفتح الباب ودخل مسرور قهرمان القصر وسيد الموالي وحاجب الرشيد ، ومعه نفر من الحراس ، فأمر بالقبض على سليمان ، وكان قد سمع بأذان جواسيسه ما دار من الحديث بينه وبين بهيرة

— ٤ —

سبق الماشقان إلى مجلس الخليفة الخاص متهمين بانتهاك حرم الخلافة والمؤامرة على الفرار والخلوة الأئيمة . فسألها عن جلية الخبر فأجاباه بصحته ، واستفهم الشهود عن تفصيل الحديث فأدلوأ به على نفسه . وكان الخليفة مفتوناً بهيرة لما جرب عليها من الوفاء والدكاء والصدق فمعا عنها ، ودفع بسليمان إلى مسرور ينفذ فيه حكمه

فتقبل الماشق المنكود الحكم عليه قبول من راض نفسه على التسليم بالقضاء المحتوم والأمر الواقع . وذهب به الموالي إلى لقاء الموت ، ولبثت بهيرة في حضرة الخليفة شاخصة لا تنطق ، واجمة لا تنطق ، كأء أخرجهما الجود عن الحياة ، وفصلهاها الدهول عن الوعي . ثم أرأت بعينيها في سكون ، وحركت لسانها ببطء ، وألقت بنفسها على قدمي الخليفة وهي تقول :
مولاي : إني أعلم أن الجريمة إذا مست الشرف